(٨)

عودة إلى عولس

لنعد الى كتاب يوليسيز فهو من صنع الخيال لأنه أدخل فى باب القصص والملاحم الاتباعية منه فى باب الأدب الصريح أو المنثور المقصود لذاته ، فكانت عمدة جويس ذاكرته ومخيلته وحالته النفسية ومشاهدته الشخصية ، فصعد بسرعة فائقة الى قمة الفن والأدب الذى لا ينسب الى عصر لأنه الفن الخالد المطلق من كل قيد، والذى لاينسب الى زمان أو أمة مع أنه راعى القواعد الأصيلة وخضع لقوانين الأدب الأزلية فاتخذ وحدة المكان (مدينة دبلن) وطنه، ووحدة الزمان (١٨ ساعة من يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤) ، ووحدة الواقعة أو العمل أو المعركة أو السباق، لأن حوادث الكتاب بدأت وانتهت بين جماعة فى الدرجة النازلة من الطبقة الوسطى ، وأثبت من تلقاء نفسه ومحض خلقه وصرف إلهامه ، مايدور فى خلدهم جميعاً فى هذا اليوم ، وقص دون أن يستمع إليهم إلا قليلاً ، جميع أقوالهم وخواطرهم وأفعالهم وانفعالهم وتفاعلهم ، ومراميهم

ومرامهم ، وأفراحهم وأحزانهم ونجحهم وخيبتهم ، وماضيهم وحاضرهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وما يحيط بهم ويؤرقهم من ذكريات الماضى التى تصلح مادة لبناء المستقبل ، وما يختلج فى صدورهم وقلوبهم من الحب والبغض والثأر والغيظ المكتوم ، وعشرات أخرى من الأشياء التى لا تعبر عنها اللغة .

كل ذلك فى دقة من وصف الأشخاص والأماكن دقة محيرة للعقل ومذهلة للذهن ، لأن هذا الجنّى من البشر استخرج صورة إنسانية كاملة خالدة من توافه الأشياء ومجارى الحياة العادية ، ورسم هذه الصورة على أبدع وأقوى وأظهر مثال وأوضح ألوان .

فهذه الصورة التى يمر بها الرائى أو السامع مرور عابر لاه أو مزدر ، هى صورة أبدية للحياة الإنسانية فى أى يوم وفى أى بقعة من الكرة الأرضية ، وتسجيلها يعد أعظم عمل للفنان ، لأنه أصعب عمل وأشق عمل وأضنى عمل ، فيمكنك الآن بعد الإلمام بهذه الغاية وهذه الوسيلة على الطريقة القاصرة التى لم يسعفنى أدبى بأقوى منها أن تحكم على شانئيه ومتهميه وكاشحيه وواصفيه بالفحش والخنى والإلحاد والخروج عن القوانين وبمرض النفس أو اختلال الشعور ، بأنهم هم أنفسهم المرضى والعجزة والمخبولين

والمعطلون ، وإن لم يكن هذا الرأى قد انعقد عليه الإجماع الآن ، فسوف ينعقد عليه بعد عشر أو عشرين سنة ، لأن المعاصرة حجاب حتى فى أوربا ولا سيما فى هذا الوقت ، ولأن الكتاب صعب المراس، كبير الحجم لايقف على سره حتى يستطيع تقديره إلا من يكون ملماً بالأدب القديم والحديث ، وبفن الملاحم والقصص ، وبتاريخ أوروبا والعالم وبريطانيا وايرلندا خاصة ، ومتمكناً فوق هذا من اللغة الانجليزية ومصادرها ومواردها ، والأدب اليونانى القديم ، وهؤلاء لعمرك نادرون فى كل أمة ولا سيما الذين ليسوا من الأنجلوسكسون ، ولابد أن يكون الذى يقدره ويفهمه من صميم أهل فنه وبينهما رابطة مافى الروح والميول ، ثم ينصب نفسه شارحاً لكتابه وحلالاً لمعضلاته ومذيعاً لفضله ، وقل أن يوجد قارىء تتوافر فيه هذه المزايا .

لم اختار جويس المكان (دبلن) والزمان (١٦ يونيه سنة ١٩٠٤) المذكورين ؟ ليس لحبه دبلن وإن تكن مسقط رأسه ، ولا لمعرفته إياها وأهلها أكثر من سواها ، فقد فارقها فى العشرين من عمره ، ولم تكن عين عقله قد تفتحت على حقائق العالم، مهما يكن نبوغه مبكراً أو بالغاً غايته ، وقد يكون عرف مدينة زيورخ أو لوسرن

أو باريس أو تريستا أو روما أو بولا أكثر من دبلن ، واختلط بأهليها وتحدث إليهم لأنه يعرف لغاتهم بأطول وأسهب مما اختلط بأهل بلده وتحدث إليهم بلغته ، ولكنه اختار دبلن وجعلها مهد فنه ومسرح ملحمته ، ليقول للعالم فى الوقت الحاضر وفى المستقبل بأن دبلن عاصمة ايرلنده الخاضعة فى عصره للاستعمار الانجليزى فى يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤ ، تشبه كل بلاد العالم منذ الخليقة فى أخلاقها وتفكيرها وعاداتها ومعقوليتها ، فإنه لا يتغير فى الناس إلا الثياب والعادات الطارئة ، أما الانسان فهو الانسان طفلاً ومراهقاً وبالغاً وكهلاً وشيخاً ، فى كل زمان ومكان ، ففرد الاسكيمو لايختلف فى طبيعته وغرائزه عن زنجى فى وسط افريقية، ولا الهندى الأحمر البائد يختلف عن الفرد الناعم المترف فى حواضر أوروبا ، وهذه حقيقة ثابتة فى أذهان العلماء بعد الخبرة والدرس وطويل الأسفار ، ومجرد الوصول الى هذه الحقيقة وإدراكها دليل العبقرية فى ذاته ، وزاد جويس على هذا إبرازها حتى تجسدت فى أبلغ أسلوب وأفصح عبارة وأوضح برهان .

أما من ظنوا أن جويس سلخ سبع سنين من عمره فى وضع كتابه بعد أن قضى ثمانى سنين (من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٤)

فى إدارة الفكرة فى رأسه والاستعداد لها ، وأنه أنفق هذا كله فى سبيل الأدب والوطن والإنسانية لا فى سبيل الفن للفن ، وهو مايسمونه art for art's sake ، فمن هراء القول ومحض الاختلاق وقلة الإدراك ، لأن هذه الغاية كانت سهلة المنال عليه وقد نالها بكتابه الأول « وصف حياة الفنان فى شبابه » الذى نشره فى سنة ١٩١٤ .

كذلك لم يؤلف جويس ملحمته عولس ، ليشفى غليله من الجزويت الذين كبتوه وعذبوه وحاولوا استعباد روحه ووأد مواهبه ، ولم يؤلفه للانتقام من أهل بلده لكونهم نبذوه وحقروه وأعانوا الزمان عليه ، أو للثأر من سادة البلاد الغرباء ، ومنهم الحكام والولاة والطبقة النافذة الإرادة ، العالية المكانة ، سواء بالمال أو بالعلم أو بالخداع أو بها جميعاً ، كلا إن أولئك وهؤلئك أضعف شأنا وأقل قدراً من أن ينفق عبقرى عظيم عمره فى سبيل الاقتصاص منهم ، وقد سبق له أن كتب قصة أهل دبلن The Dubliners ، وأتى فيها بالمعجب والمطرب ، ولامس مكانة العرش واستأذن جورج الخامس فى أن يكتب عن جدته فكتوريا وأبيه ادوارد مايشاء القلم والفن .

أبداً كلا لا ! إن ملحمته عمل فنى محكم البناء متناسب

متناسق ، محبوك الأطراف ، يمثل صورة عالمية بل كونيه أبدية ، وعلى طريقة موضوعية Objective أى خارجة عن شخص المؤلف ومنفصلة عن ذاته ، حسب قواعد الفن الأدبى فى الملاحم المنظومة ، إلا أنه كتبها نثراً ، لأن النثر أعلى قدراً من الشعر وإن يكن أصعب معالجة وأعسر سبيلاً ، ولا يناله الشعراء أبداً ولا يجمع رجل بينه وبين الشعر على درجة واحدة ، فضلا عن أن فصولاً بأكملها من الملحمة تعد من الشعر المصفى ، مثل فصل الغزل بين أحد أبطال الكتاب والفتاه جرتى ، ووصف المشنوق فى الساحة العامة ، وجنازة دينجام امـ فقراء البلد ، فهذه فى نثرها المرسل أعلى من الشعر المنظوم ، وفى بلاغتها المطلقة وبيانها الممتنع ، أمتع من دواوين بأسرها .